من المغول إلى داعش

الشيخ د. جعفر المهاجر

(1)

ثمة حقيقةٌ يعرفُها المؤرّخون المُتمكنّون ، وألمح إليها إلماحاً بعضُ مَن كتبوا تاريخَ الفترة المغوليّة في بلاد الإسلام . ولكنّهم جميعاً لم يقِفوا عندها الوقفةَ التي تستحقُّها ، هي أنّ المغول / التتر الذين اجتاحوا العالم الإسلامي من أقصى مشرقِه حتى أبواب مصر ، فدمّروا البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأسقطوا الدُوَل ، وبعثروا من نجا من السُكان ، بحيث انفرطت مُجتمعاتٌ عريقةٌ مُزدهرةٌ بأكملِها ، ــ هؤلاء لم يكونوا جميعاً من المغول الوثنيين ، بل كان أكثرُهم من المسلمين. ولكنّ الخجلَ ، فيما يبدو ، هو ما حالَ بين الجميع وبين البوح بالحقيقة الرهيبة . لأنّها تعني أن تلك الفظائع المَهولة قد ارتكبها في بلاد الإسلام ، وإنُ جُزئيّاً ، إخوانٌ لهم في الدين .

(2)

خرج المغولُ من منغوليا ، بعد أن لمّ شملَهم جنكيز خان ووحّدهم سياسيّاً واجتماعيّاً ، على قاعدةٍ تنظيميّة عمادُها شريعتُهم الموروثة المُسمّاة (الياسا) . بعد أن كانوا قبائل مُنشغلةً بالمنازعات والحروب فيما بينها يغزو بعضُها بعضاً . وبهذه الوسيلة أنشأ دولةً سرعان ما ضمّت إليها دولة خوارزم التركيّة التي كانت تنبسطُ على كل آسيا الوسطى (ماوراء النهر) بالإضافة إلى إيران . وبذلك صارت منغوليا الصغيرة دولةً عظمى ، لها من الموارد بالرجال والمال والسلاح ما ليس له مُضارعٌ يُعادلُه من المُحيط الهادي حتى اواسط أوروبة . اتجهت فوراً إلى إقامة امبراطوريّةٍ مغوليّة عالَميّة . ومن ذلك طبعاً غزو العالَم الإسلامي .

في السنة 656 هـ / 1257م اجتاحوا العراق فدمّروه تدميرا ، وقضوا على الخلافة العباسيّة . ومنها إلى أقطار الشام ، حيث قضوا على الإمارات الكثيرة فيه حرباً أو استسلاماً . إلى أن وصلوا إلى عين جالوت في فلسطين. وفيها ذاقوا لأوّل مرّةٍ طعم الهزيمة على يد االمماليك المصريين ، فانطلق الناجون منهم مُهرولين تُلاحِقهم فُرسان المماليك حتى اجتازوا نهر الفرات . وهنا انتهى دور الاجتياحات ليبدأ دورُ الدُوَل المغوليّة الحاكمة في العراق وإيران .

(3)

ممّا ينطوي على كبير معنى أن أولئك الذي نُسمّيهم اليوم المغول سمّاهم أسلافُنا فيما تركوا لنا من أدبيّات تاريخيّة وبُكائيّة : التّتَر. وذلك اسمٌ لم يأتِ من الفراغ

بالتأكيد ، يعني أنّ أولئك الذين تعامل معهم الناس في بلائِهم كانوا من الشعوب التتريّة الواسعة الانتشار. وبناءً على ماقاله هوتسما في (دائرة المعارف الإسلاميّة ، مادة " تتر ") فإنّ المغول كانوا يُعرفون في الصين والعالَم الإسلامي والروسيا وغرب أوروبة باسم التتر. وما هؤلاء إلا من الشعوب التُركيّة التي تقطن سُهوبَ آسية الوسطى . والعثمانيّون ظلّوا مدة طويلة لا يؤثِرون أن يُطلَق عليهم اسم تُـرك بل تَتَـر . وأكثرُ من ذلك أنهم (العثمانيّون) كانوا في السنة الأخيرة التي سبقت الثورة على حُكم الخلافة ، عندما أصبح مبدأ القوميّة له المكانة الأُولى عندهم ، قـد تناقشوا فيما إذا كانوا يُطلقون على أنفسهم اسم تُرك أم تتر .

ها هنا خليطٌ من الأسماء نُصادفُه في المصادر قديمِها وحديثِها : مغول ، تُرك ، خوارزميّة ، تتر. مع اسمٍ جامعٍ لهم هو (الطورخان) . وتفسير ذلك غير عسير على العارف بالتركيبة السُكانيّة للمنطقة التي خرج منها تلك الشعوب . فهذه السهوب الشاسعة ، التي تقطنُها شعوبٌ رعويّة شديدة المِراس ، تتكلّم لهجةً أو غيرَها من اللهجات التركيّة ، كانت الميدان الذي تتحرّك فيه شعوبٌ كثيرة ذهاباً وإياباً وتختلطُ دون حُدود . لأن السهوبَ نفسَها كالبحار لا حُدود فيها . ومن الآثار التي نلمُسها حتى اليوم لذلك ، أنّ الإقليم الذي يُسميّه الصينيّون "شـينكيانغ" ، واسمُه التاريخي "تركستان الشرقيّة" ، يتكلمُ أهلُه لغةً يفهمُها دون كبير صعوبة أهلُ إستامبول وتبريز ، على الرغم من الستة آلاف كلم تقريباً التي تفصلُ بينهما . ولنتذكّر بالمناسبة أنّه منذ بعض الوقت عندما قمعت الدولةُ الصينيّة أهلَ ذلك الإقليم ، انتفض رئيسُ وزراء الدولة التركيّة آنذاك أردوغان غاضباً ، بذريعة أنّهم أتراك من أبناء جِلدَته .

(4)

هكذا ، فعندما خرج عسكر هولاكو خروجَه الثاني مُتجهاً إلى العراق كان يقودُ جيشاً خليطاً من الشعوب ، المُتقاربة لغةً وطِباعاً ، والمتعارِفَة أثناء تاريخها الطويل . كان قادتُه من المغول ، نعم ، ولكنّ أكثر المقاتلين من التتر والخوارزميّة المُسلمين . انضمّتْ إلى الجيش الزاحف الذي لا يُقهَر، تُحرّكهم شهوةُ السّلب والنّهب . ومن هنا فعندما طلب هولاكو من الخليفةُ المُستعصم العباسي أن يُرسل وفداً من قِبَلِه ، لمُناقشته في السبب الذي دعاه لغزو عاصمة الإسلام وعصيان أمر الخليفة (وهـذه البادرة من هولاكو أمرٌ لا يفوتُ القارئَ اللمّاح فهم مغزاه ، وكأنّه كان يتفادى ظهور تعارُض بين ضمير قسمٍ لا يُستهان به من عسكره وبين اقتحام عاصمة دار الإسلام وما يقتضيه) ، ـــ وجدَ الوفدُ في قِبالـه عُلماءَ دين ، ممّن كانوا في رِكاب هولاكو ، يُجادلونه بالقرآن والحديث والشريعة في شرعيّة هذا الخليفة واستحقاقه المنصب وعدله وحِفاظه للدولة

وشعبها ، وما إلى ذلك . وكأنّ ذلك الجِدال كان بمثابة تمهيدٍ أو مقدّمةٍ أو تسويغٍ لاستباحة بغداد وما ارتُكب فيها من فظائع . وما ندري هل حصلَ ما حصل بفتوى منهم أم بمجرّد السكوت (علامة الرّضى ؟) وعلى كلّ حال فإنّ الشواهدَ على وُجود مُسلمين في الجيش المغولي كثيرة جـدّاً . ومن أبرز ما وقعتُ عليه من ذلك ، أن هولاكو عندما دخل بعلبك صُلحاً ، بتوسّط ابن المدينة تقي الدين الحشائشي ، الذي كان هو الآخر في رِكاب هولاكو ، ، ولّى عليها أحدَ أُمراء عسكرِه واسمه **بدر الدين يوسف الخوارزمي** . ثم كان ان استنهض عالِمُها البطل ابن ملّي الأنصاري ونظّم وقادَ حربَ عصابات ناجحة ضدّ المُحتلين ، فأوكل هولاكو إلى الخوارزمي أمرَ قتال المُجاهدين .

لكنّ ما يمنحُ المُتأمّل الحاذق حظّاً أكبرَ في تقدير عديد المسلمين في الجيش المغولي ، هو أن هذا عندما وصل إلى سهل عين جالوت وجد المماليك وقد قطعوا عليه الطريق هناك كي لا تقعَ المعركةُ المُرتقبة على أرضهم . وسرعان ما محقتهم سيوفُ المماليك الحِداد كما نعرف . ما من ريبٍ عندنا في بُطولة المماليك يومذاك . وعلى كل حال فإنّهم كانوا يُقاتلون عن امتيازاتهم الطبقيّة العسكريّة . ولكنّ الحَسْم السريع للمعركة يدلُّ على أنّ المغول لم يكونوا في مثل عديدهم الكبير يوم استباحوا العراق . ممّا يدفعُ باتجاه الظنّ القوي بأن قسماً لا يُستهانُ به من جَمْعهم كان قد انكفأ راجعاً إلى حيث أتى ، بعد أن امتلأت أيديهم من النهب والسبي ، وبعُدت بهم الدروبُ الطويلة عن بلادهم . هؤلاء كانوا من الذين التحقوا بهم ولم يكونوا منهم . والقراءةُ الدقيقةُ لنصوص المؤرخين عن المعركة تُظهرُ أنّهم كانوا جميعاً في عين جالوت من المغول ، ولم يكُن فيهم مَن يُذكَرُ من المسلمين . والنتيجة لهذا التحليل أن الفعلَ والأثرَ للجيش المغولي في العراق ، وربما إلى أوّل الشام ، كان للمسلمين من تترٍ وخوارزميّة وليس للمغول . وعندما انفصل عنهم هؤلاء خمدوا وانتهوا كقوة بطشٍ لا تُقاوَم .

(5)

دائماً كانت علاقة الجزء الشرقي من العالَم الإسلامي (مصر والشام والعراق وإيران) بالشعوب التركيّة بمختلف أسمائها علاقةً فلنُسَمّها طُفيليّة . حيث الكائن الطفيلي يتعلّقُ بمُضيفه لغرضٍ واحد هو امتصاصُ دمائه : الغزوة المغوليّة الأُولى ، دولة المماليك ، ثم الغزوة الثانية بقياد غازان ، والثالثة بقيادة تيمور لنك ، وُصولاً إلى الليل العثماني الطويل . أي أنّ العالَم الإسلامي عانى مختلف صنوف البلاء منهم مدة ستة قرون ونصف . انحدر أثناءها انحداراً ثابتاً باتجاه الانحطاط في كل شئ . خصوصاً على أيدي العثمانيين الذين أسّسوا أساسَ الافتراق النهائي الحادّ العمودي بين المذاهب الإسلاميّة . وذلك إذ صنّفوا المسلمين رسميّاً إلى أهل ملّة هم أتباعُ أحد المذاهب

الأربعة حصْراً مع امتيازاتٍ خاصة بالمذهب الحنفي ، وخارجون على الملّة هم كل مَن سواهم . وبنوا على ذلك أن وضعوا أوّلَ تنظيرٍ رسميّ للإضطهاد على قاعدة الاختلاف في المذهب ، ممّا لا تزالُ آثارُه الفاعلة حتى اليوم في كل الاتجاهات التكفيريّة . وفي المُقابل ليس لهم (أي للعثمانيين) أدنى مُساهمة فكريّة في المعارف الإسلاميّة ، حتى في مذهبهم الحنفي . لا كتابٌ باقٍ ، ولا عالمٌ ذو أثر. (لمَن يُحبّ المقارنة أن يتذكّر ما يعرفه ، مهما يكُن ضئيلاً ، عن مُساهمة الفُرس الكُبرى في كافة الميادين) .

أمرٌ آخَر لا غنى عن ذكره في هذا السياق . هو أن القتل كان عند أُولئك جميعاً مفهوماً آخر مُختلفاً عن كل ما لدى مَن عداهم من البشر . وكأنّه كان فنّا يؤدّونه بتلذُذ ، يتدرّبون على إتقانِه منذ نعومة أظفارهم . والذين قُتلوا على أيديهم من المسلمين أثناء تلك القرون هم فوق كل إحصاء بل فوق كل تصوُّر . ليس هذا هو مَحَطّ كلامنا . فنحن العرب أيضاً عندنا قَتَلَة سفّاحون ، لا قيمة عندهم للحياة البشرية (الحجّاج ، مثلاً) . ولكن فلنلاحظ أن تيمور لنك ، ذلك السّفاح الذي قتل من البشر أكثرَ ممّا قتلَ أيُّ إنسان آخَر في كل التاريخ ، وكان مُغرَماً ببناء الأهرامات بجماجم قتلاه ، هو عند قومه وليٌّ من أولياء الله . وحتى اليوم فإنّ قبره في سمرقند مقصَدٌ للزائرين يتبرّكون به ويُقدّمونه بين أيدي صلواتهم .

من ذلك أيضاً ، أنّ التقليد الثابت الذي كان معمولاً به لدى خُلفاء الأُسرة العثمانيّة المُتوالين ، أنّ كلّ مَن يجلسُ على كرسي الحُكم يكون أوّلُ ما يفعله أن يقتلَ جميع إخوته خنقاً بالغاً ما بلغ عددُهم . هنا أيضاً نقول ، ليس هذا هو مَحَطّ كلامنا ، بل أنّه كان يُنظَر إلى هذا العمل الشنيع من قِبَل المؤرخين والفقهاء والأُدباء بوصفه إجراءً طبيعياً لاغُبار عليه من الوُجهة الأخلاقيّة ، ولا بُدّ منه لمصلحة استقرار الحُكم .

(6)

ذلك التاريخ الأسود ، أربابَهُ وضحاياه ، هو الخلفيّة الفكريّة والسلوكيّة للهول الذي يُهدّدنا اليوم . إنّنا إذ ننظر مذهولين إلى شخصٍ يُطلق لحيته ويحفو شاربيه اتباعاً للسُنّة النبوية ، وهو يرفع رأساً بشرياً مُكَبّراً مُتفاخِراً ، او يذبحَ طفلاً ، أو يسبي فتاةً ليبيعها بالمزاد ، فلسنا بحاجةٍ إلى كبير تأمُّل لنعرفَ من أين استقى حوافزَه وفكرَه المُحرّك والمُوجّـه .